البنية التحتية للمدن الإسلامية فى الأندلس
مدينة قرطبة أنموذجا ... دراسة تاريخية

د. راوية عبد الحميد شافع*

الملخص

كانت المدينة المنورة، عاصمة الدولة الإسلامية الأولى هى النموذج الذى احتذته جميع المدن التى تم إنشاؤها خارج شبه الجزيرة العربية، وذلك فى أعقاب حركة الفتوحات الإسلامية الكبري، ولذلك عقب فتح الأندلس مباشرة، واتخاذ بنو أمية مدينة قرطبة عاصمة لملكهم الجديد، الذى زال فى مشرق العالم الإسلامى، وأعيد من جديد فى مغرب العالم الإسلامى، على يد أحد أمرائهم الفارين من المشرق، وهو الأمير عبدالرحمن بن معاوية (١١٣ – ١٧٢ هـ) - (٧١٣ – ٧٨٨ م) ، الذى حمل لقب عبدالرحمن الداخل، لدخوله الأندلس، وحمل أيضا لقب صقر قريش.

وقد سارت قرطبة بدورها على نهج جميع المدن الإسلامية التى أسست فى رقعة العالم الإسلامى أنذاك، وبدأت البنية التحتية بها بتأسيس المسجد الجامع Mezquita de Cordoba ، تأسيا بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، ويعتبر المسجد هو أهم منشأة فى البنية التحتية للمدينة الإسلامية، حيث يتوسط المدينة، ومنه تتفرع الشوارع والدروب، وجميع المرافق التى تتكون منها المدينة، وبصبح المسجد هو قلب المدينة النابض بالحياة.

ثم بدأ بناء قصر الإمارة، وتبعه بناء الأرباض والتى تعنى الأحياء التى يسكنها عامة الناس على اختلاف طوائفهم، وقد تميزت قرطبة بشبكة من المياة لم يوجد لها مثيل على عصرها، وشوارع معبدة ، ومنازل مطلية باللون الأبيض مزينة بالزهور، وتكاد المنشآت التى ضمتها مدينة قرطبة تطابق منشآت العصر الحالي.

وتفردت مدينة قرطبة بمنشأتين من المنشأت الخاصة بها، الأولى وهى القنطرة العربية AL Cantara، والتى ربطت بين شقيها الشمالى والجنوبى. والثانية هى الحمامات العربية العامة Banos Arabes، والتى أسهب المؤرخون فى وصفها من حيث العدد وجمال البناء، وقد ضمت العديد من المدن هذه الحمامات، لكن حمامات مدينة قرطبة كان لها شهرة واسعة، لاهتمام جميع الحكام بتلك المنشأة والتفرد فى العناية بها، علاوة على ما نالها من هدم وطمس لمعالمها عقب سقوط المدينة، وهو ما أعطاها شهرة واسعة. وقد ضمت كل تلك المنشأت، الأسوار Les Murallas Arabes القوية التى ميزت جميع المدن فى تلك الفترة التاريخية.

Infrastructure of Islamic cities in Andalusia
The city of Cordoba is a model ... a historical study.

Dr. Rawya Abd Elhamid Shafea

Abstract

The city of Medina, the capital of the first Islamic state, was the model adopted by all the cities that were established outside the Arabian Peninsula. This was followed by the great Islamic conquests. Therefore, after the conquest of Andalusia, the Umayyads took the city of Cordoba as the capital of their new king. (113 - 172 e) (713 - 788 AD), who took the title
of Abdul Rahman inside, to enter Andalusia, and also took the title of falcon Quraish.

Cordoba, in turn, followed the approach of all the Islamic cities established in the Islamic world at that time, and the infrastructure began to establish the mosque of Mezquita de Cordoba, the mosque of the Prophet peace be upon him, the mosque is the most important infrastructure in the Islamic city, , From which the streets and routes, and all the facilities that make up the city, intersect, and the mosque becomes the heart of the vibrant city.

* أستاذ مساعد التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية – قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة حلوان.

Then the building of the Palace of the Principality began, followed by the construction of the quarters, which means the neighborhoods inhabited by the general public of different sects. Cordoba was characterized by a network of water that had no parallel to its era, Paved Streets and White Houses decorated With Flowers.

The city of Córdoba was distinguished by two of its own establishments: the first is the Arab architrave AL Cantara, which connected its northern and southern brethren; and the other is the public Arab baths Banos Arabes, which historians described in terms of number and beauty of the building. But the baths of the city of Cordoba had a wide reputation, for the attention of all the rulers of that facility and the uniqueness of the care, in addition to the demolition and blurring of its features after the fall of the city, which gave her wide fame. All of these facilities included the strong walls of Les Murallas Arabes, which characterized all the cities in that historical period.

مقدمة

شكلت المدن العربية الإسلامية فى الأندلس نموذجا فريدا فى النشأة والتكوين، وتفردت على سائر المدن فى كافة أصقاع العالم الإسلامى، فقد كان التفرد والسبق والابتكار الذى اتبعته المدن الإسلامية فى الأندلس، مختلفا حيث استفادت بصورة كبيرة جدا من البيئة المختلفة التى ازدهرت فيها.

والحقيقة أن هذا التفرد هو الذى حفظ لها العديد من مقومات البقاء حتى عصرنا الحالى، وبصورة جيدة، عكس الكثير من المدن الإسلامية التى اندرست وبادت، وطغى عليها عامل الزمن والإهمال، فما زالت العديد من المدن الأندلسية تحتفظ بطابعها الإسلامى الأندلسى القديم رغم مرور الزمن عليها، ومن أهم تلك المدن التى مازالت تحتفظ بطابعها وتخطيطها الإسلامى، مدينة قرطبة Cordoba.

وقد نالت مدينة قرطبة على وجه التحديد العناية التاريخية والسياسية والإجتماعية والاقتصادية والعلمية والأثرية والثقافية، فى كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب والمسلمين والمستشرقين، ودارت حولها العديد من المؤلفات، وبخاصة فى دورها السياسى والحضارى كعاصمة لدولة الإسلام فى الأندلس لأكثر من ثلاثة قرون (١).

وقد خضعت مدينة قرطبة ككل المدن الإسلامية التى أنشأت عقب حركة الفتوحات الإسلامية الكبرى، وجرى عليها ما جرى على كل المدن، الجديدة منها، كالبصرة والكوفة وبغداد، أو المجددة، أى المعاد تخطيطها من جديد بما يتناسب مع العمارة والتخطيط الإسلامى، كيثرب (المدينة)، أو إشبيلية وقرطبة وطليطلة ... الخ. خضعت قرطبة للتخطيط العمرانى، الذى يمكن أن نطلق عليه نموذج المحاكاة للنموذج الأول، لأول مدينة إسلامية وأول عاصمة لدولة الإسلام، والمقصود بها هنا، المدينة المنورة.

وقد عرف العرب والمسلمون نظام المدن مع هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، من مكة إلى يثرب، التى أطلق عليها اسم المدينة إيذانا بالتغيير. و كان الهدف الرئيسى لإطلاق اسم العلم المدينة على يثرب، هو نقلها من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة (٢). ولذلك كانت من أول وأهم اهتمامات الرسول صلى الله عليه وسلم، العمل على الغاء العصبية والقبلية، وكل ما يمكن أن يؤدى إلى التنازع والتطاحن التى عرفتها المجتمعات العربية قبل الإسلام.

ومن هنا انتقل المجتمع مع معرفته الجديدة بتأسيس المدن، إلى حياة جديدة يكون الولاء فيها للدين والوطن الجديد، بعد أن كان الولاء للقبيلة والعصبية، وعلى ذلك انتشرت المدن الجديدة. وكانت أولى المدن التى أسست خارج شبه الجزيرة العربية، مدينة البصرة حوالى عام (١٤ هـ) – (٦٣٥م)، تلتها الكوفة حوالى عام (١٧ هـ) – (٦٣٨م)، ثم تتابعت المدن شرقا وغربا.

وقد اختار الباحث أن يتناول مدينة قرطبة، كنموذج للمدن الأندلسية التى سارت على نفس درب تأسيس المدن الإسلامية، حيث تشابهت المدن الإسلامية فى الأندلس من حيث التخطيط، ولكن اتخاذنا لمدينة قرطبة جاء لعدة أسباب، فهى أكثر المدن الأندلسية شموخا من حيث التأسيس والاهتمام، وبخاصة بالبنية التحتية، والتى سبقت بها كل المدن على عصرها، و أشاد بها العديد من المؤرخين والجغرافيين ممن زاروها أو كتبوا عنها قديما وحديثا.

ولم تكن مدينة قرطبة هى الإختيار الأول و العاصمة الأولى للأندلس، حيث سبقتها مدينة إشبيلية Seville، كعاصمة أولى للأندلس، ولأسباب عديدة تم تغيير العاصمة فى عهد والى الأندلس أيوب بن حبيب اللخمي (٩٧ هـ – ٧١٥م) (٣).

وبلغت مدينة قرطبة فى عصرى الإمارة والخلافة، أوج المجد والرفعة والرقى والازدهار، واتسعت رقعتها العمرانية وأصبحت تضم جميع مرافق الحياة، وأصبحت لا تدانيها أى مدينة أوربية أخرى من حيث فخامة العيش ورفاهية الإقامة، ولن نقول هذا الحديث ينطبق على خاصة القوم فقط، بل خاصتهم وعامتهم، هذا فى الوقت الذى كانت كل مدن أوربا ترزح تحت ظلام الجهل والفقر والمرض.

وقد أحصى العديد من المستشرقين عدد سكان مدينة قرطبة فى عصرها الذهبى، وأيضا تم عمل مقارنات بينها وبين العديد من المدن الأوربية المعاصرة لها، فكانت مدينة قرطبة الأكثر سكانا ولا تدانيها أو تقترب منها أى مدينة أوربية أخرى، حيث بلغ عدد سكانها فى أزهى عصورها، وهو عصر الخلافة حوالى نصف مليون نسمة (٤). وهو عدد كبير جدا بمقياس العصر، وهنا ضربنا المثل بمدينة قرطبة موضوع البحث من حيث عدد السكان، وقد كانت المدن الأندلسية الأخرى لا تقل كثافة فى عدد السكان عن قرطبة، حيث كانت مدن الأندلس جميعها عنصرا جاذبا لكافة أصقاع المعمورة من عرب وأوربيين وأفارقة وغيرهم.

*البنية التحتية لمدينة قرطبة فى كتابات بعض المستشرقين.

والحقيقة، رأيت قبل أن نسترسل فى تناول العناصر المكونة للبنية التحتية للمدن الإسلامية، ومدينة قرطبة، من خلال المصادر والمراجع العربية والإسلامية، أن نشير إلى آراء بعض المستشرقين حول موضوع البنية التحتية لمدينة قرطبة على وجه التحديد، فهى ستكون مقدمة مهمة، تبرز هذا الموضوع فى عيون هؤلاء المستشرقين، من خلال شهادات البعض منهم.

وآثرت أن أبدأ، برأى المستشرق الإسبانى المتشدد / فرانسسكو خافيير سيمونت Francisco Javier Simonet، والذى عرف عنه تعصبه الشديد ضد الأندلسيين والمسلمين فى الأندلس بصفة عامة، ولكن عندما تعلق الموضوع بالحضارة والمنجزات الإسلامية من أهل الأندلس، التزم الحياد، وتناول الحديث عن المنشآت الإسلامية، وبخاصة مدينة قرطبة، حيث يقول " كان الأمير عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) - (٨٢١ – ٨٥٢ م)، يعشق البذخ وقد حفلت مدينة قرطبة على عهده بالعديد من المساجد والقصور والقناطر والمنشآت المختلفة، وقد أشاد Simonet، بكل تلك المنجزات، نقلا عن أحد شهود عيان ذلك العصر، وأحد مشاهير النصارى بمدينة قرطبة، وهو القس إيلوخيو (٥)، حيث يقول :- لقد أسبغ عبدالرحمن الأوسط على مدينة قرطبة عاصمة مملكته ألوانا من العظمة ورفعها بين سائر المدن، وكساها بحلل المجد، وأنفق عليها الثروات الطائلة، وملأها بجميع مظاهر الفخامة الدنيوية، وحلق بها إلى حدود لا يصدقها العقل " (٦). الحقيقة أن تلك الشهادة، على درجة عالية جدا من الأهمية لأنها صادرة من

شخصين، أثر عنهما كرههما الشديد للإسلام والمسلمين فى الأندلس، بل وتحاملهما على كل ما هو إسلامى، ولكن هنا كان لا بد من شهادة حق فى البنية التحتية للمدن الإسلامية والتى تمثلها هنا مدينة قرطبة، فما تم إنجازه بتلك المدينة يصعب التغاضى عنه حتى من المتشددين والمناوئين للإسلام والمسلمين فى الأندلس.

أما المستشرق الفرنسى جوستاف لوبون Gustave Le Bon (١٨٤١ - ١٩٣١ م)، فقد عرج على هذا الموضوع أيضا فى كتابه حضارة العرب، حيث يقول :- " لم يكد العرب يفرغون من فتح شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال)، حتى بدأوا يقومون برسالتهم المعهودة فى بناء مجتمع جديد، حيث استطاعوا فى أقل من قرن من الزمان، إنشاء دولة فتية لا يوجد لها مثيل فى أوربا كلها، فقد أقاموا المدن والقرى وشيدوا أفخم وأضخم المبانى " (٧).

ويمدنا المستشرق الفرنسى أيضا، جوزيف توسان رينو Joseph Toussaint Rwinaud، (١٢١٠ - ١٢٨٤ هـ) - (١٧٩٥ - ١٨٦٧ م)، بنص فى غاية الأهمية، يلخص موضوع البحث تقريبا، من حيث اشتماله على العناصر والمفردات التى قامت عليها المدن الإسلامية فى الأندلس، وبخاصة العاصمة، حيث يقول:- " لقد كان المركز الأول لهذه الحضارة فى الأندلس، فى العاصمة الأندلسية الأولى، والأكثر شهرة، مدينة قرطبة التى أصبحت درة المدن الأندلسية، لتربعها على عرش الأندلس لثلاثة عصور متتالية، عصر الولاة، ثم عصر الإمارة، ثم عصر الخلافة، لم ينازعها هذا الشرف من مدن الأندلس أى مدينة أخرى، حيث كانت تجلس على عرش الحضارة الأوربية، كأكبر وأغنى مدينة، فقد كانت شوارعها معبدة ومضاءة، تملأها الحمامات العامة، ومنازلها جميلة، ومساجدها رائعة، بحيث أصبحت أوربا كلها ليس بها مدينة تضاهى قرطبة، سوى القسطنطينية نفسها، وأصبحت قرطبة ملاذا لملوك إسبانيا النصرانية وملوك أوربا، إذا أرادوا الشفاء من أمراضهم، أو إجراء العمليات الجراحية "(٨).

ونستنتج من هذا النص، أنه رغم إعجاب المستشرق الفرنسى رينو بمدينة قرطبة لم ينف التنافس بينها وبين المدن الأندلسية الأخرى، هى بالفعل تتفوق على مثيلتها ، لكن هناك مدن أندلسية أخرى تسير على درب المنافسة معها، بل القسطنطينية نفسها كانت تتبارى مع قرطبة فى التنافس الحضارى.

أما إذا ما تطرقنا إلى موضوع البنية التحتية للمدن الإسلامية، فى الأندلس، فالحقيقة أن بعض عناصرها اختلفت اختلافا كبيرا عن البنية التحتية فى عصرنا الحالى، فهناك عناصر كثيرة اندثرت فى المدن القديمة، والمقصود بالإندثار هنا ليس الإندثار الأثرى، بل الإندثار من حيث الأهمية، وكانت هذه العناصر من أهم أسس إقامة المدن فى تلك الحقب التاريخية، وعلى سبيل المثال، أسوار المدن، لم تعد لها الأهمية التاريخية كما كانت قديما، وأيضا أبواب المدن التى تفتح فى تلك الأسوار، وكانت تمثل هى والأسوار خط الدفاع الأول عن المدن الإسلامية وغيرها.

ومن العناصر التى اختلف موقعها ولم تختلف وظيفتها المساجد الجامعة، كما سنذكر لاحقا، فقد كانت تمثل قلب المدينة، وتتمحور حولها الحياة فى المدن الإسلامية، أما الأن فيمكن أن يقام المسجد فى أى مكان فى المدينة، بل ومع الزحام والتمدد العمرانى الكبير يفضل أن يكون المسجد فى الأماكن الهادئة بعيدا عن قلب المدن وصخبها، ولكن هناك الكثير من عناصر البنية التحتية مازالت مستمرة إلى الآن من حيث الأهمية فى استكمال البنى التحتية للمدن الإسلامية، مثال المساجد، ومنازل الخاصة والعامة، والحدائق، والشوارع، وشبكات المياه، والصرف، ومعاهد العلم، أو المدارس والجامعات بلغتنا الحالية، والبيمارستانات أو المستشفيات وغيرها.

والأن سوف نتناول كل عنصر من هذه العناصر بشيء من التفصيل، ونوضح الأهمية التاريخية له فى استكمال البنية التحتية للمدن الإسلامية، وبخاصة فى مدينة قرطبة، التى

أصبحت النموذج الذى يحتذى به فى الغرب الإسلامى كله، فى إقامة وتخطيط المدن على عصرها.

أ- الأسوار Las Murallas

تعتبر أسوار المدن الإسلامية أول منشأة مهمة فى المدينة، فهى خط الدفاع الأول فى حماية المدن فى فترة العصور الوسطى، وقد عرفت كل مدن الأندلس الأسوار للحماية، كما عرفت أيضا المدن غير الإسلامية الأسوار، فهى سمة وطبيعة عصر، وقد كان لمدينة قرطبة أسوارا قبل الفتح الإسلامى، وتم إنشاء هذه الأسوار أيام الحكم الرومانى لمعظم مدن شبه الجزيرة الأيبيرية، ويعرف عن الأسوار الرومانية أنها غاية فى القوة والإتقان، ولكن مع مرور الزمن وعدم العناية، تثلمت أسوار مدينة قرطبة، وتجمع أراء المؤرخين حول أهمية وسرعة الفاتحين المسلمين فى إعادة أسوار المدينة المتهالكة، وذللك بغية الحفاظ والحماية للمدينة.

وكان أول من فكر فى اصلاح سور مدينة قرطبة، هو واليها السمح بن مالك الخولانى (٩)، الذى كان من جملة اصلاحاته التى بعثه من اجلها الخليفة عمر بن عبدالعزيز (٦١ - ١٠١ هـ) (٦٨١ - ٧٢٠ م)، وأمره بتنظيم إدارة الأندلس من الناحية المالية، وقد رأى قبل أن يبدأ فى تشييد وترميم أسوار مدينة قرطبة، أن يستأذن الخليفة فى دمشق، وكتب إليه قائلا:- " مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها، ووصفه بحمله وامتناعه عن الخوض الشتاء عامة، فإن أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت، فإن قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد، وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم"(١٠).

ويتضح لنا من خلال هذا النص الذى يحمل قدرا كبيرا من الأهمية فى التعامل بين الخليفة فى دمشق وعماله على البلاد والمدن، أهمية التواصل والمشورة بين الطرفين، بحيث لا يقطع الوالى رأيا دون المشورة والعودة إلى الخليفة ، رغم توفر وفائض الموارد المالية كما جاء من خلال النص، علاوة على إعطاء الأولوية لرواتب الجند ونفقات الجهاد، وهو ما يعبر بوضوح على قوة الدولة الإسلامية فى بداياتها فى الأندلس، فلم تعط الأولوية للتشييد والترميم والبناء، وهو ما تم اتباع عكسه فى أخريات دولة الإسلام فى الأندلس، التى اهتمت فى عصور الضعف والتدهور بالتشييد والبناء والزخرفة ، على حساب نفقات التحصين والحرب والجهاد، وهو ما أدى إلى النتيجة المحتومة، لسقوط الأندلس، وشتان ما بين الأندلس فى عصورها الأولى وعصورها الأخيرة.

وبذلك يكون السمح، أول من وضع النواة الأولى للبنية التحتية لمدينة قرطبة، عندما بدأ بتحصين الأسوار، وذلك عقب وصوله مباشرة إلى المدينة واليا عليها وعلى الأندلس جميعها، فهو يعرف جيدا أهمية الأسوار فى حماية المدن فى تلك الفترة التاريخية، وحبذا لو كان هذا السور يحمى عاصمة المسلمين الجديدة، وهى مدينة قرطبة، علاوة على تهدم القنطرة القديمة المقامة على نهر الوادى الكبير Guadalquivir الذى يشق المدينة، وكان أمامه خياران، إما أن يبنى القنطرة بحجارة السور، حيث عدم توفر الحجارة اللازمة من محاجر الأندلس للفاتحين الجدد، فقد كانوا حديثى عهد بالبلاد، ولا يعرفون أماكن استخراج الحجارة اللازمة لهذه الأغراض، كما يذكر صاحب الرسالة الشريفية، حيث يقول :- " فإنه كان لا يعرف يومئذ فى جهة قرطبة مقطع الحجر" (١١). وقد أضفنا فى نهاية البحث بعض الصور التى توضح العديد من هذه المنشآت، والتى مازالت بحالة جيدة جدا، مثال الأسوار والقنطرة والمسجد الجامع والحمامات والشوارع والدروب والمنازل والمكتبات.

وجاء رد الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز، حيث أشار على السمح، باستخدام حجارة السور فى بناء القنطرة لعبور أهل قرطبة على ضفتى نهر الوادى الكبير، وأن يقوم بترميم السور بالطوب اللبن(١٢). وربما يكون السبب الذى فضل فيه الخليفة ترميم السور بهذه الطريقة التى ربما لا توفر الحماية اللازمة لسور المدينة ولأهلها، أولا : إيثار مصلحة العامة الذين يحتاجون

القنطرة لحياتهم اليومية أكثر من السور، وثانيا:- عدم الحاجة الملحة لترميم السور كالقنطرة، وذلك نظرا لقوة الفاتحين المسلمين وسيطرتهم واستتباب الأمن فى دولتهم، بعد أن تمكنوا من اخضاع كافة المدن الأندلسية، ولذا يمكن أن تؤجل مسألة تقوية أسوار المدينة إلى وقت لاحق.

وهو ما تم بالفعل لاحقا، حيث لقى سور مدينة قرطبة عناية كبيرة فى عصر الموحدين، بإعتباره خط الدفاع الأول عن المدينة، وكانت الأندلس قد دخلت فى عصور جديدة، وحروب طاحنة، لذا أخضع الموحدون السور لعملية ترميم كبيرة، حيث أقام خلفاء الموحدين حزاما برانيا أو سورا أماميا، لزيادة تقوية المدينة والدفاع عنها فى وقت بدأت فيه المدن الأندلسية تتساقط الواحدة تلو الأخرى.

وقد تهدم السور الإسلامى للمدينة اليوم ولم يتبق منه سوى أجزاء صغيرة متناثرة فى المدينة (١٣). واستخدم السمح أحجار السور القوية فى بناء القنطرة، والتى مازالت قائمة على حالها إلى اليوم تشهد بعظم ومتانة البناء والتشييد للفاتحين المسلمين.

وقد كان لهذه الأسوار أبوابا عديدة، وبلغ عدد أبواب مدينة قرطبة سبعة أبواب (١٤)، وكان أهم هذه الأبواب على الإطلاق هو الباب الجنوبى، الواقع على قنطرة المدينة، المقامة فوق نهر الوادى الكبير، ولذلك عرف هذا الباب بإسم باب القنطرة أو باب الوادى، أو باب الجزيرة (١٥).

ب- القنطرة Alcantara

تعتبر القنطرة، والتى مازالت تحمل نفس الإسم إلى اليوم فى اللغة الإسبانية، من أهم البنى التحتية التى أنشأها المسلمون بعد فتح المدينة واستقرار الأمور بها، وذلك منذ عصر الولاة، فعقب اتخاذ مدينة قرطبة عاصمة للأندلس، أحيا المسلمون المدينة التى كانت قد طالتها يد الإهمال أزمانا عديدة، ويمدنا صاحب كتاب أخبار مجموعة بنص سبق أن ذكرناه من قبل عند الحديث عن بناء السور، يوضح فيه الحال المذرى لمدينة قرطبة عند الفتح الإسلامى، حيث يقول إن والى الأندلس ، السمح بن مالك الخولانى (تولى ولاية المدينة من ١٠٠ - ١٠٢ هـ / ٨٩١ - ٧٢١ م)، وبعد استشارة الخليفة الأموى فى دمشق، أعاد بناء القنطرة، لم رأه من حاجة أهل المدينة إليها فى ربط أجزاء المدينة على نهر الوادى الكبير (١٦).

ويضيف ابن عذارى فى البيان المغرب، حول هذه القنطرة، ويقول:- إن القنطرة القديمة التى بناها الرومان، كانت بفعل الزمن قد تهدمت، وكان لا بد من إعادة بناءها مرة أخرى، حيث أنها تربط المدينة بأرباضها (أى ضواحيها أو أحيائها) على نهر الوادى الكبير، ويقول " وكان المسلمون إذا فتحوا قرطبة، وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها، على حنايا وثاق الأركان، من تأسيس الأمم الدائرة، وقد هدمها مدود النهر، على مر الأزمان، فتقدم إلى فضيلة النظر فيها عمر بن عبدالعزيز، عندما اتصل به خبرها، فأمر السمح بابتنائها، فصنعت على أتم وأعظم ما بنى عليه جسر من حجارة سور المدينة " (١٧). والطريف هنا، أن هذه القنطرة التى بنيت منذ مئات السنين لربط المدينة، وخدمة أهلها، ما زالت إلى اليوم تؤدى نفس الدور الذى أنشئت من أجله.

وقد اهتم ولاة وأمراء وخلفاء بنى أمية بالقنطرة والحفاظ عليها، حيث تعرضت القنطرة لسيل فى عهدالأمير عبدالرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) - (٧٥٦ - ٧٨٨ م)، مما أدى إلى تهدم بعض أجزائها، ولأهميتها فى ربط المدينة، قام ابنه وولى عهده الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل (١٧٢ - ١٨٠ هـ) - (٧٨٨ - ٧٩٦ م)، فى احيائها وبنائها، وانفق عليها أموالا طائلة، وأشرف على البناء بنفسه، بل كان يعطى أجور العمال بنفسه أيضا (١٨)، فقد كان محبا لأعمال الخير حتى لقب بهشام الرضا (١٩). ولشدة ورعه وتقواه، نما إلى علمه أن أهل قرطبة يتهامسون فيما بينهم، قائلين:- إن الأمير لم يصلح القنطرة للصالح العام لأهل المدينة، وإنما أصلحها لنفسه ولمصلحته الشخصية، حتى يعبر عليها أثناء ذهابه لممارسة رياضة الصيد والقنص، فأقسم من

فوره ألا يعبر على القنطرة إلا للغزو، أو للقيام بمصالح الرعية، وقد وفى بيمينه ما عاش (٢٠). وتمثل القنطرة اليوم واحدة من أهم المعالم الأثرية لمدينة قرطبة على نهر الوادى الكبير.

ج- المسجد الجامع Mezquito de Cordoba

كان المسجد هو أول بناء تم تأسيسه بمدينة قرطبة عقب فتحها مباشرة على يد الفاتح مغيث الرومي (٢١)، والمسجد هو نواة البنية التحتية للمدينة العربية الإسلامية، فهو أهم منشأة على الإطلاق فى كل المدن، يبدأ به البناء ويتم اتخاذ أفضل وأهم المواقع فى قلب المدينة لإقامته، بحيث يكون هو مركز المدينة، وقد استمد البناء العربى المسلم، هذا تأسيا بالمسجد النبوى الشريف، وقد اختلف الوضع قليلا فى تأسيس المسجد الجامع بمدينة قرطبة، فلم يؤسس المسلمون المسجد على أرض فضاء كما فى المسجد النبوى الشريف، ولكنهم شاطروا نصارى المدينة جزأ من كنيستهم الكبرى (٢٢).

علاوة على ذلك كان المسجد، هو الأساس الذى يعتمد عليه العرب فى صبغ المدن بالصبغة الإسلامية، إذ أن المسجد الجامع بمرور الزمن يصبح مركز وثقل المدينة، فمنه تتفرع الطرق الكبرى، المؤدية إلى أبواب المدينة، وحول ساحته تقام الأسواق والحمامات والفنادق، والمنازل، وفيه تعقد الاجتماعات السياسية، وتوزع ألوية الجيش، وفيه تدرس العلوم الدينية، وغير الدينية، فليس غريبا أن يسيطر المسجد الجامع على كافة مناحى الحياة، الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فى المدينة الإسلامية (٢٣).

وقد طرأ على المسجد الجامع بمدينة قرطبة، بمرور الأيام وتعاقب الأمراء والخلفاء، إضافات عديدة حتى صار متحفا للفن الإسلامى فى الأندلس، وحول تلك النقطة يمدنا الحميرى بنص مهم يوضح اهتمام حكام الأندلس، بهذا المسجد ويقول عنه :- " المشهور أمره، الشائع ذكره، من أجل مصانع الدنيا كبر مساحته، وإحكام صنعته، وجمال هيئته، وإتقان بنيته، تهمم به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميما إثر تتميم، حتى بلغ الغاية فى الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف، فليس فى مساجد المسلمين مثله تنميقا، وطولا وعرضا " (٢٤).

ولعظم ومكانة المسجد الجامع فى نفوس أهل قرطبة، وأيضا لدوره الكبير فى الحياة الدينية والاجتماعية والعلمية، أطلق عليه العديد من المؤرخين لقب " الجامع الأعظم " (٢٥). بل ذهب البعض إلى المبالغة فى مكانة المسجد وتشبيهه بالمسجد الحرام، وبأنه أصبح قبلة للناس يفدون إليه من جميع المدن ، وبخاصة فى شهر رمضان، وفى هذا يقول شاعر الأمير عبدالرحمن الأوسط، ابن المثنى :-

بنيت لله خير بيت يخرس عن وصفه الأنام
حج إليه بكل أدب كأنه المسجد الحرام
كأن محرابه إذا ما حف به الركن والمقام (٢٦).

وكان أول تأسيس وتوسعة حقيقية للمسجد الجامع بقرطبة، قد تم مع دخول الأمير عبدالرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) - (٧٦٥ - ٧٨٨ م)، وإعادة تأسيس ملك بنى أمية من جديد، وكان الجامع قد ضاق بكثرة أعداد المصلين، فطلب أهل قرطبة من الأمير عبدالرحمن العمل على توسعة المسجد، ولم يجد أمامه سوى مساومة نصارى قرطبة للتنازل عن الجزء الخاص بهم لتوسعة المسجد، وبعد مساومات عديدة، وإجزال العطاء لكبرائهم من رجال الدين المسيحي، تم التنازل عن الجزء الخاص بهم ، مقابل السماح لهم ببناء كنيسة أخرى خاصة بهم خارج أسوار مدينة قرطبة، وهى كنيسة شانت أجلح San Asciclo (٢٧).

ونستنتج من هذا النص، أن حاكم الأندلس لم ينتزع ملكية الجزء الخاص من الكنيسة من النصارى عنوة، وهو قادر على ذلك، بل تمت بعد مفاوضات شاقة وطويلة، ودفع التعويض الذى يشمل الناحية المادية، وأيضا العينية بمنحهم مكانا أخرا لكنيستهم الجديدة، والحقيقة أن الحاجة الملحة لتوسعة المسجد نظرا للزيادة السكانية، هى التى فرضت على حاكم الأندلس اللجوء إلى هذا الإجراء، وليس دفاعا عن الحاكم، ولكن كانت هذه هى السمة والتصرف الدائم، الذى يلجأ إليه الحاكم، دون اللجوء إلى القوة أو التجاهل للطرف الأخر.

وبعد أن حاز الأمير عبدالرحمن الداخل، على الجزء الخاص بالنصارى، أنفق الأموال الطائلة على تجديد المسجد، وإعادة بناءه من جديد، والتى وصلت إلى ثمانين ألف دينار، وهو مبلغ كبير جدا بمقياس العصر، ويخلد ابن عذارى هذه الذكرى على لسان الشاعر دحية بن محمد البلوى، فى قصيدته التى صاغها تخليدا لهذا الحدث المهم، حيث يقول :-

وأنفق فى ذات الإله ووجهه ثمانين ألفا من لجين وعسج
توزعها فى مسجد أسه التقى ومنهجه دين النبى محمد (٢٨).

وقد وضع كل أمراء وخلفاء بنى أمية بصمتهم الخاصة بهم على المسجد الأموى، حتى صار متحفا مفتوحا للعمارة والزخارف والفنون الإسلامية، حتى تمت آخر توسعة للمسجد فى عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر (٣٧١ – ٣٩٢ هـ) – (٩٨١ – ١٠٠٢ م)، ونؤكد مرة أخرى على أن تلك التوسعة، كانت تتم أيضا، بتعويض أصحابها بما يرضونه من أموال وأراضى بديلة ، وقد استرضى المنصور بدوره أصحاب الدور والعقار المجاور للمسجد والمراد نزع ملكيته، ويقول ابن عذارى، أنه عمد إلى " تطيب النفوس أرباب الدور والمستغلات الذين أشتريت منهم للهدم لهذه الزيادة بإنصافهم من الثمن أو معارضته " (٢٩).

ولم يقتصر الأمر الخاص بنصارى الأندلس على تعويضهم فقط مقابل الكنائس أو الدور التى أخذت منهم، بل ترك المسلمون للنصارى حرية إنشاء ما يريدون من الأديرة (٣٠).

وقد كان للمرأة الأندلسية فى مسجد قرطبة مكانا خاصا بالنساء، تأسيا بالمسجد النبوى الشريف، والذى كان به أيضا مكانا خاصا للنساء، وعلى دربه سارت معظم مساجد الإسلام الأولى (٣١). وساهمت المرأة الأندلسية بدورها فى إنشاء المساجد، وبخاصة زوجات وجوارى الأمراء والخلفاء، وكانت هذه المساجد تعرف بأسمائهن المجردة، مثال مسجد الشفاء وهى جارية وأم ولد للأمير عبدالرحمن الأوسط، ومسجد عجب ومسجد طروب (٣٢). وقد أنشأن منيات (متنزهات) أيضا تحمل أسمائهن (٣٣)، ويضيف الأستاذ / ليفى بروفنسال، حول مساهمة المرأة الأندلسية فى البنية التحتية لمدينة قرطبة قائلا :- إن المرأة فى قرطبة قد وضعت حجر الأساس، للعديد من المنشآت العمرانية، ومن الملاحظ أن هؤلاء الجوارى كان معظمهن من الأميرات زوجات الأمراء، أو من بين أمهات الأولاد أو الحرائر، جميعهن شاركن جنبا إلى جنب (٣٤).

وظل المسجد يؤدى دوره حتى سقطت مدينة قرطبة سنة سنة ٦٣٣ هـ، ١٢٣٦ م، وتم تحويل المسجد بكامله إلى كنيسة، عرفت بإسم كنيسة سانتا ماريا العظمى (٣٥) ، Iglesia de Santa Maria La Mayor. وهنا بدأت التغييرات تطال المسجد فى كل جوانبه، بما يتناسب مع وضعه الجديد، ولكن رغم ما تعرض له المسجد ، فرضت روعة المسجد وعظمة العمارة والزخارف نفسها على المالك الجديد، وما زال على الأقل يحتفظ ببنيته التحتية كما هى إلى الأن.

ونختم هذه النقطة، ببيان عدد المساجد فى مدينة قرطبة بصفة عامة، فقد بلغ حوالى ٣٨٧٧ مسجدا (٣٦)، وفى قول أخر ١٨٣٦ مسجدا (٣٧)، وكيفما كان الرقم الصحيح، فهو يدل على مدى العناية والاهتمام بهذه المنشأة المهمة، وهو ما يؤيد رأينا حول الإهتمام الشديد بكل مرافق

البنية التحتية للمدن الإسلامية، وعلى رأسها مدينة قرطبة، حاضرة الإمارة والخلافة فى الأندلس.

د- الحمامات العربية Banos Arabes

عندما تذكر مدينة قرطبة، يذهب الذهن طواعية إلى منشأة من أهم المنشآت التى تفرد بها المسلمون على الإطلاق، والتى تمثل عصب البنية التحتية للمدينة الإسلامية، ألا وهى الحمامات، وقد تميزت مدينة قرطبة بكثرة حماماتها العامة، والخاصة، وقد ارتبطت الحمامات بعادة النظافة، والتى هى صلب الدين الإسلامى، ولا تصح العبادات إلا بها، وقد تضاربت الآراء حول الرقم الذى تحويه مدينة قرطبة من الحمامات، وأقرب الآراء إلى الصواب ما ذكره المقرى، وهو ٩٠٠ حمام عام، وكان الكثير من هذه الحمامات يقع بالقرب من المسجد الجامع، كى يتمكن المصلون من التطهر قبل الذهاب للصلاة (٣٨). وعقب سقوط قرطبة، ونتيجة للتعصب الأعمى ضد كل ما هو إسلامى، وبخاصة الحمامات، طالت يد الهدم والإهمال، هذه المنشأة المهمة، ولم يتبق منها سوى بعض الأطلال القليلة، التى تخبرنا بمدى روعة وصلابة هذه المنشأة التى تم تخريبها عن عمد.

ولم ينس البناء الأندلسى، نصيب النساء، فى تلك المنشأة الحيوية، حيث يذكر المستشرق الإسبانى إمبروسيو أويثى ميراندا Amboroso Huici Miranda:- أن المرأة الأندلسية كانت تهتم إهتماما كبيرا بنظافتها، فكانت تخرج إلى الحمامات العامة بانتظام، وكانت قرطبة وحدها تضم عددا كبيرا من حمامات النساء، الخاصة بهن فقط، وقد كان الخروج إلى الحمامات فرصة للتسلية والتسرية، والخروج عن روتين الحياة اليومية، ولقاء الصديقات، والتمتع بقدر من الحرية، بعيدا عن متاعب الحياة اليومية داخل الدور(٣٩).

وقد كانت حمامات النساء على وجه التحديد، تخضع لرقابة شديدة من قبل المحتسب، لمعاقبة المتسكعين والمتطفلين عليها، ولا نبالغ، بأن هذه المنشأة الإسلامية الخالصة، والتى لم تعرفها إسبانيا المسيحية، أو أوربا، إلا عن طريق المسلمين فى الأندلس، كانت من أكثر المنشآت التى طالتها يد التعصب الأعمى فأصبحت أثرا بعد عين. وقد ارتبطت الحمامات القرطبية، بشبكة المياة التى أنشأها أمراء بنى أمية، وتعجب العديد من المؤرخين ممن تناولوها، لتمد قصورهم أيضا بالمياه، ويذكر المقرى :- أن أمراء بنى أمية أجروا المياه العذبة التى جلبوها من جبال مدينة قرطبة، وأجروها فى قنوات مصنوعة من مادة الرصاص، وكانت تصب فى بحيرات بديعة وصهاريج صنعت لهذا الغرض (٤٠).

هـ- الشوارع والدروب Calles Y Rutas

ارتبطت الشوارع فى مدينة قرطبة كغيرها من المدن الإسلامية، بالمسجد الجامع، فقد تفردت الشوارع فى المدن الإسلامية بصفة عامة، بأنها شوارع يمكن أن نطلق عليها مصطلح، الشوارع الشعاعية، Calles Radiales، أى التى تنبثق من خلال المسجد، وهى عكس الشوارع الرومانية القديمة التى تم تخطيط معظم المدن الإسبانية، ومدينة قرطبة عليها قبل الفتح الإسلامي للأندلس. وقد كانت الشوارع الرومانية تتميز بالإستقامة الشديدة، والتعامد، وهو ما انتفى مع تخطيط المدن للشوارع الإسلامية، والتى فرضتها طبيعة تخطيط المدينة نفسها، والمسجد الجامع كأهم منشأة حيوية فى قلب المدينة، والذى كان يشغل قلبها وحوله تتمحور كل البنى التحتية للمدينة بما فيها الشوارع.

وقد كانت مدينة قرطبة كغيرها من المدن الرومانية فى الأندلس، مخططة بشوارع متوازية متعامدة، كرقعة الشطرنج، ومع الفتح الإسلامى طالتها يد التغيير، وفرضت عليها اللمسة الإسلامية لتخطيط الشوارع. وقد بلغت المدينة أوج عظمتها واتساعها فى القرن الرابع الهجرى، العاشر الميلادى، وامتدت خارج حدودها القديمة التى بدأت بها، وكانت هذا التوسعه

بطبيعة الحال على ضفتى نهر الوادى الكبير Guadalquivir، الذى يشق المدينة، ووصلت إلى أوج إكتمال بنيتها التحتية، وأصبحت تضم كافة المرافق اللازمة، بداية من المسجد الجامع، وقصر الإمارة، والحمامات والفنادق والأسواق والشوارع والمكتبات والبيمارستانات (المستشفيات) وغيرها. وقد تفرعت من هذه الشوارع العديد من الأحياء، وكانت تعرف بالحومات، مثال حومة الفرج وحومة الرقاقين، بالقرب من باب العطارين (٤١)، وغيرها.

وقد أمدتنا المصادر الإسلامية بأسماء العديد من الشوارع والدروب، وكان أهم شارع على الإطلاق فى مدينة قرطبة، هو شارع المحجة العظمى، وهو الشارع الرئيسى الذى يمتد من المسجد إلى قصر الإمارة، عبر القنطرة، ومن هذا الشارع، تتفرع بقية الشوارع الفرعية الأخرى، والدروب الصغيرة، وهو من الشوارع الرومانية القديمة، ولكنه فقد صفاته الأولى، وطغت عليه اللمسات الإسلامية للطرق الإسلامية، وأصبح يمتلىء بالدروب والحارات والأزقة (٤٢).

ويضيف ابن سعيد حول حراسة هذه الأزقة والدروب، ويقول :- " بلاد الأندلس لها دروب، بإغلاق تغلق بعد العتمة، ولكل زقاق بائت فيه، له سراج معلق، وكلب يسهر وسراج معد، وذلك لشطارة عامتها، وكثرة شرهم، وإعيائهم فى أمور التلصص، إلى أن يظهروا على المبانى المشيدة، ويفتحوا الأغلاق، الصعبة، ويقتلوا صاحب الدار خوفا أن يقر عليهم، أو يطالبهم بعد ذلك " (٤٣). ونستنتج من هذا النص، أهمية الأمن والأمان فى تلك الأزقة والدروب، علاوة على الإهتمام بالمبانى المشيدة، فما زال البيت القرطبى يمثل القوة والجمال والأناقة والنظافة فى التشييد حتى يومنا هذا.

و- القصور والمنازل Casas Y Palacios

لا نود الإسترسال طويلا فى هذه النقطة، حيث كتب فيها من قبل الكثير، ولكن ما يهمنا منها هى الإهتمام بالناحية المعمارية من حيث القوة واالنظافة والنظام، سواء فى منازل الحكام، أو الخاصة، أو العامة، وقد أمدنا المقرى فى كتابه نفح الطيب باحصائية توضح كثرة المنازل، ومدى ما وصل اليه الإمتداد العمرانى بمدينة قرطبة، فى نهايات حكم الدولة الأموية، وبالتحديد فى عهد الحاجب المنصور بن أبى عامر (٣٢٧ – ٣٩٢ هـ) (٩٣٨ – ١٠٠٢ م)، حيث ذكر، أنه قد بلغ عدد الدور فى مدينة قرطبة حوالى ٢١٣٠٧٧ منزلا للعامة، ٦٣٠٠ منزلا للصفوة، من أكابر القوم والوزراء والكتاب وغيرهم (٤٤).

وقد عمل المسلمون منذ بداية الفتح على جذب كل عناصر المجتمع القرطبى إلى الإندماج جنبا إلى جنب، وهو ما ساعد على إزدهار المدينة، حيث لم يميزوا أنفسهم بأحياء خاصة بهم ، كاليهود على سبيل المثال، ولم يميزوا أنفسهم بمنازل خاصة بهم، بل عاشوا إلى جوار النصارى واليهود وكافة أطياف السكان فى المجتمع القرطبى، وقد جاء فى الرسالة الشريفية، أن موسى بن نصير (١٩ - ٩٧ هـ) - (٦٤٠ - ٧١٦ م)، ومنذ بداية الفتح أقر الجميع من غير المسلمين " على أموالهم ودينهم بأداء الجزية، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال، لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية فى أرض الثمرة وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم، بيهود خيبر فى نخيلهم وأرضهم (٤٥).

وقد سار حكام بنى أمية على نهج أسلافهم فى المشرق الإسلامى فى بناء وتشييد القصور فى الأندلس، وأصبحت قرطبة على عصرهم المدينة الأميرية والخلافية بإمتياز وذلك مما أقاموه من قصور بها، ما زالت تشهد برفاهية عصرهم، وقد بدأ هذه العادة، أول أمرائهم وهو الأمير عبدالرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢ هـ) - (٧٥٦ - ٧٨٨ م)، الذى أنشأ أهم قصر من قصورهم وهو قصر الرصافة، وفى ذلك يقول المقرى :- " لما تمهد ملكه شرع فى تعظيم قرطبة، فجدد معانيها وشيد مبانيها وحصنها بالسور، وابتنى قصر للإمارة والمسجد الجامع، ووسع فناءه، وأصلح مساجد الكور، ثم ابتنى مدينة الرصافة " Arrizafa (٤٦).

أما منازل الخاصة والعامة، فقد تساهل بنو أمية كثيرا فى بداية حكمهم، ونتيجة لإحكامهم القبضة على البلاد بأسرها، بل ومدينة قرطبة العاصمة بصفة خاصة، وتركوا عامة الشعب يشيدون دورهم وحوانيتهم (دكاكينهم)، وأسواقهم، بالقرب من قصور أمرائهم، ونتيجة لهذا التخطيط غير المدروس، الذى أدى إلى أندلاع أول ثورة كبيرة ضد حكام بنى أمية، وهى ما عرفت تاريخيا بثورة الربض (٤٧)، أيام الأمير الحكم الربضى (١٨٠ – ٢٠٦ هـ) – (٧٩٦ – ٨٢٢ م)، الذى غير من معالم المدينة، وانتبه إلى الخطأ الكبير فى ترك عامة الناس بالقرب من قصر الإمارة، ووضع خطوطا حمراء كثيرة بين الحاكم والرعية، حيث قام بحرث الربض، وتهجير أهله، وسار على دربه كل من جاء بعده من حكام بنى أمية.

وعرفت مدينة قرطبة لأول مرة ما يمكن أن نطلق عليه (المبنى الإدارى) أو (المبنى الوزارى)، حيث قام الأمير عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦ – ٢٣٨ هـ) – (٨٢١ – ٨٥٢ م)، بإنشاء قصرا داخل قصره، Casa de Los Emiratos، وخصصه للإجتماع بوزراءه، وجعله داخل قصره لسرعة عقد الإجتماعات متى أراد ذلك، وحول هذا الموضوع يقول ابن القوطية :- " وعبدالرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر، والتكلم فى الرأى، على ما هو جار إلى اليوم، وكان له وزراء، ولم يكن للخلفاء قبله، ولا بعده مثلهم " (٤٨).

وقد ضاقت مدينة قرطبة، وكثر عدد سكانها، وكان لا بد من التوسع خارج نطاقها، ككل المدن الحديثة فى عصرنا الحالى، مما دفع حكام بنى أمية، إلى الخروج خارج حدود المدينة بعدة كيلو مترات، لبناء مدن جديدة، ولكنها ملحقة ومكملة للمدينة الأم مدينة قرطبة، فتم إنشاء مدينتان جديدتان، وهما مدينتى الزهراء والزاهرة، اللتين حملتا لقب المدن الملكية، فقد كان الهدف الرئيسى من تشييدهما، البعد عن زحام وضوضاء العاصمة، علاوة على إظهار هيبة وفخامة وضخامة ملك بنى أمية، ويقول عنهما الحجارى فى المسهب: " وقرطاها ـــ أى مدينة قرطبة ـــ الزاهرة والزهراء، حاضرتا الملك، وافقاه النعماء والسراء " (٤٩).

ونختم هذه النقطة برأى مهم للمستشرق الفرنسى / جوستاف لوبون Gustave Le Bon، حول تأثير البناء والعمارة الأندلسية، بصفة عامة، وعمارة مدينة قرطبة بصفة خاصة، على الشمال الإسبانى فى إقليم قطالونية (برشلونة) Barcelona، والتى كانت فى ذلك الوقت تخضع لحكم النفوذ الفرنسى، فقد ظهرت فيها بحكم هذا التأثير أكثر الأبنية فخامة وضخامة، فى قطلونية، وهى بازيلكيا سان ميجيل دى كوشة، Basilica San Miguel de Cuxa، وهى ذات طابع مستعرب على النمط القرطبى، وهى من أهم رموز الفن الإسلامى، وتم بناءها سنة ٤٢٧ هـ - ١٠٣٥ م، على يد القس Oliva (٥٠).

وقد تأثرت العمارة الملكية الأوربية أيضا، بالعمارة الأندلسية، حيث يضيف المستشرق الفرنسى / جوستاف لوبون، قائلا :- أن القصور التى بناها ملوك نصارى الشمال الإسبانى، فى كل من قشتالة Castilla، وليون Lion، تقوم على طراز تلك القصور العربية، قصور ملوك الطوائف، (٤٢٢ – ٤٨٧ هـ) – (١٠٣١ – ١٠٩٤ م)، وهو عصر ذروة التداخل والإختلاط بين المسلمين والنصارى فى الأندلس، ومن أمثلة هذه القصور قصر شقوبية Alcazer de Segovia، الذى أمر بإنشائه الملك الفونسو السادس Alfonso V1 (١٠٤٠ – ١١٠٩ م)، على نمط قصر طليطلة العربى، (وكانت مدينة طليطلة قد وقعت فى يده فى ٢٥ يناير ١٠٨٥ م)، وكان الملك ألفونسو السادس قد عاش فى المدينة قبل سقوطها، وعاش فى القصر كلاجىء سياسى، حوالى تسعة أشهر من عام (٤٦٤ هـ - ١٠٧١ م)، ومما يزيد من قيمة هذا القصر، إمكان إعتباره مثالا للقصور العربية المحصنة التى اقيمت فى إسبانيا النصرانية، على نمط القصور العربية فى الأندلس(٥١). هكذا كان تأثير البناء المسلم وإبداعاته فى هذا المجال على العمارة المسيحية فى شمال إسبانيا. ويضيف الأثرى

الإسبانى / ليوبولدو توريس بلباس Leopoldo Torres Balbas، أن فن العمارة الأندلسية ترك أثره على العديد من المنشآت الأخرى، مثل الجسور والكبارى والقنوات المائية المعلقة .. وغيرها (٥٢).

ز – الأسواق Mercados

يرتبط سوق المدينة المركزى إرتباطا وثيقا بالمسجد الجامع، فلا بد أن يكون قريبا بل ملاصقا للمسجد الجامع، والحكمة هنا أن يسهل الوصول إليه من كافة أرجاء المدينة، والتى تتفرع معظم شوارعها ودروبها كما سبق وأن ذكرنا من المسجد الجامع. وقد تميزت أسواق مدينة قرطبة بأنها مسقفة ومعبدة، نظرا للطبيعة الجغرافية للمدينة، وبخاصة فى فصل الشتاء حيث الأمطار الغزيرة، فلا بد من حماية السوق ورواده والبضائع من التلف.

وقد بلغ عدد الحوانيت فى أسواق مدينة قرطبة حوالى ٨٠٥٥٥ حانوتا (٥٣)، وكانت هذه الأسواق بصفة خاصة تخضع لرقابة المحتسب دائما لسهولة الغش والتدليس فى صناعة العطور والمراهم، وصعوبة اكتشاف هذا الغش لأنه يحتاج إلى خبرة بالأعمال الكيميائية، ويذكر أحمد بن عبدالرؤوف فى رسالته للحسبة : بأن المحتسب كان يمنع خلط الحناء قديمها بجديدها، لأن القديم يضعف لونه وصبغته إذا خزن مدة طويلة، وكذلك يمنع خلط المسك والزعفران والعطور البلدية بالعطور الهندية الجيدة، وإذا ضبط شيىء من هذا القبيل، يصادر المضبوط، ويتصدق به (٥٤).

وكانت الأسواق عامة للرجال والنساء، ولكن كانت هناك أسواق خاصة بالنساء، دون الرجال، حيث تباع فى أسواق النساء الأشياء الخاصة بهن فقط، مثال أدوات الزينة والمراهم، ويذكر ابن حزم : أن باب العطارين ، أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة، ويقع فى الجانب الغربى من المدينة، كانت تقوم حوله تجارة العطور والمراهم وأدوات الزينة الخاصة بالنساء، ولذلك أصبح هذا المكان ملتقى النساء من كل أنحاء المدينة (٥٥).

ح – المكتبات Bibliotecas

ونختم هذا البحث بواحدة من أهم البنى التحتية، التى تميزت بها مدينة قرطبة على وجه التحديد، ألا وهى المكتبات، فما ذكرت مدينة قرطبة منذ سقوطها، إلا وذكر العلم بكافة صوره مرادفا لها، فقد اعتنى أهل الأندلس بصفة عامة بالعلوم، والكتب ، والمكتبات، وكانت سمة عامة يتشارك فيها جميع أهل الأندلس، ونستدل هنا بنص أورده المقرى، لابن سعيد يوضح شغف واهتمام أهل قرطبة بالكتب وخزائنها، حيث يقول :- إن أهل مدينة قرطبة كانوا أكثر بلاد الأندلس حبا للكتب وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب (٥٦).

وقد كان الاهتمام بالمكتبات والكتب ينقسم إلى قسمين، إهتمام الخاصة وعلى رأسهم حكام بنى أمية، واهتمام عامة الشعب بكل فئاته وطوائفه، وكانت متاجر الكتب على عصر بنى أمية، هى الأكثر عددا، و رواجا، وبيعا، وتتسابق فيما بينها على اقتناء النادر من أخر الإصدارات العلمية شرقا وغربا، وضرب المثل بحب أهل قرطبة فى اقتناء الكتب، وقيل فيهم " إذا مات عالم بإشبيلية، فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة، فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية حتى تباع فيها " (٥٧).

وأما على المستوى الخاص لأمراء وخلفاء بنى أمية، فقد اهتموا جميعا بالنواحى العلمية واقتناء النادر من الكتب، فقد أرسل الأمير عبدالرحمن الأوسط، مبعوثه الخاص، عباس بن ناصح الجزيرى، (ت بعد سنة ٢٣٠ هـ)، إلى المشرق الإسلامى، ليأتى له بالنادر من الكتب، فحمل له مجموعة نادرة من الكتب، على رأسها كتاب السند هند، فكان أول من أدخل هذا الكتاب النادر والمهم إلى الأندلس، وعرف به أهلها (٥٨).

ويعتبر عهد الخليفة الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) – (٩٦١ - ٩٧٦ م)، هو أهم عصور الأندلس، وبنى أمية، وقرطبة، فى الإهتمام بالكتب والمكتبات، فقد كان محبا ومشجعا للعلم والعلماء، وقيل فيه :- " إنه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل أنها أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر فى نقلها، وكان عالما نبيها صافى السريرة " (٥٩). وكان للحكم المستنصر خزائن كثيرة من الكتب، ولا يوجد كتاب فى تلك الخزائن، إلا ومر عليه الحكم، إما بالقراءة أو النظر، أو التعليق.

وقد وجد الخليفة الحكم المستنصر، فى المرأة الأندلسية خير معين له على نقل ونسخ أمهات الكتب، ليضعها فى مكتبته الخاصة، وكانت أشهر وأهم شخصية نسائية على أيامه هى " لبنى العروضية "، ويقول عنها ابن بشكوال :- إنها كانت خطاطة بارعة حاذقة بالكتابة، نحوية وعروضية وشاعرة بصيرة بالحساب، ومشاركة فى العلم، ولم يكن فى قصره أنبل منها، وتوفيت سنة ٣٨٤ هـ - ٩٩٤ م (٦٠). ويمكن أن نطلق على تلك الشخصية النسائية الفريدة، أنها أول من تولت إدارة مكتبة كبيرة بحجم مكتبة الخليفة الحكم المستنصر فى الأندلس.

والحقيقة أن منشآت المدن الإسلامية فى الأندلس وعلي رأسها مدينة قرطبة، تكاد تطابق منشآت المدن في عصرنا الحالي، إن لم تتفوق عليها في بعض العناصر التى اندثرت واندرست مع الزمن والحاجة اليها، وقد آثرنا التفصيل فى العناصر الرئيسية للبنية التحتية، وخوفا من الإطالة، نورد بعض العناصر الأخري التى لم يتطرق اليها البحث بالتفصيل، ونحيل القاريء الكريم الي بعض كتب أساتذتنا ممن تناولوها فى مؤلفاتهم القيمة (٦١)، ومن هذه العناصر الكتاتيب والتي زخرت بها المدن وبخاصة مدينة قرطبة حول مسجدها الأموي الجامع، والقيساريات، والفنادق، ودار السكة، ودار الصناعة، والسجون، والأحياء، والرحبات (أي الميادين).

نتائج الدراسة

وفى نهاية تلك الدراسة الخاصة بالبنية التحتية للمدن الإسلامية فى الأندلس، والتى مثلت مدينة قرطبة النموذج والمثل على ما وصلت إليه من تقدم ورقي وازدهار، نوضح أن معظم المدن الإسلامية فى شرق وغرب العالم الإسلامى، قد بادت واندرست، إلا أن مدينة قرطبة وغيرها من مدن الأندلس، مازالت تحمل طابعها الإسلامي، كأنها بنيت منذ سنوات قليلة، واحتفظت إلى وقتنا الحالى بعناصرها الأولى بحالة جيدة قلما نجدها فى العديد من المدن الأخرى. ولهذا شغلت المدن الأندلسية، وعلى رأسها مدينة قرطبة، حيزا كبيرا فى كتابات المؤرخين العرب والمستشرقين، بما تحويه من تاريخ وأثار ، ما تزال تشهد على عظمة ومكانة البناء العربى المسلم إلى يومنا هذا. وقد تفردت مدينة قرطبة فى موضوع بنيتها التحتية، بأنها المدينة الوحيدة فى الأندلس، التى تم توسعتها خارج حدودها الأولى مرتين، وذلك بإضافة مدينتين جديدتين تابعتين لها، وهما مدينتى الزهراء والزاهرة.

وفى النهاية، نذكر، أنه رغم ما كتب عن مدن الأندلس، ومدينة قرطبة، ما زال الموضوع يحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة فى المجالين التاريخى والأثرى، فكل يوم تمدنا الإكتشافات التاريخية والأثرية بالجديد الذى يحتاج البحث والدراسة، فقد تم مؤخرا الكشف عن مزيد من الأثار الخاصة بمدينتى الزهراء والزاهرة، وقد انتبهت السلطات الإسبانية إلى ذلك، وأصبحت تولى هذا الموضوع اهتماما كبيرا، نظرا لم تحققه من عوائد سياحية، ونظرة حضارية للبلاد.

الهوامش والحواشى

(١) فتحت مدينة قرطبة Cordoba، سنة ٩٢ هـ - ٧١١ م، على يد مغيث الرومى، مولى الوليد بن عبدالملك، وسقطت سنة ٦٣٣ هـ - ١٢٣٦ م، وما بين الفتح والسقوط، كانت أهم مدينة فى أوربا على عصرها. للمزيد حول عوامل سقوط مدينة قرطبة راجع :- الحميرى : (أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم الحميرى) ت أواخر القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلادى، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، نشرة الأستاذ / ليفى بروفنسال، القاهرة، ١٩٣٧ م، ص ١٦٩. المقرى : (أحمد بن محمد المقرى التلمسانى) ت ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق الأستاذ/ محمد محى الدين عبدالحميد، ١٠ أجزاء، القاهرة، ١٩٤٩م، ج١، ص ٤٤٨.

(٢) يرى ابن خلدون، أن كلمة المدينة مرادفة للحضارة، أو كما أسماها الملك وسيادة الدولة. للمزيد راجع : ابن خلدون : (عبدالرحمن بن محمد بن خلدون) ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦ م، تاريخ ابن خلدون، المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام ملوك العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، المقدمة، سبعة أجزاء، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣ هـ، ١٩٩٢ م، ص ١٦٣، ١٨٢.

(٣) أيوب بن حبيب اللخمى (٩٧ هـ - ٧١٥م) : هو ثالث ولاة الأندلس وابن أخت للفاتح الكبير موسى بن نصير. ابن عبدالحكم (أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبد الحكم) (١٨٧ – ٢٥٧ هـ) (٨٠٣ – ٨٧١ م)، فتوح مصر والمغرب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ١٩٩٩م، الجزء الأول، ص ٢٨٦. وقد تولى ولاية الأندلس بعد مقتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير من شهر رجب ٩٧ هـ إلى شهر ذى الحجة ٩٧ هـ، حيث تم عزله وتولى مكانه الحر بن عبدالرحمن الثقفى (٩٧ – ٩٩ هـ) (٧١٦ – ٧١٩ م). ابن عذارى : (أبو عبدالله محمد بن عذارى المراكشى) عاش حتى ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٠م، الجزء الثاني، ص ٢٥. ووجد أيوب أن مدينة قرطبة هى الأنسب لتصبح عاصمة الأندلس، فنقل العاصمة من إشبيلية إليها. مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، تحقيق / إبراهيم الإبيارى، دار الكتاب المصرى، القاهرة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٩م، ص ٢٨.

(4) Torres Balbas (Leopoldo): Extension Y Demografia de Les Ciudades Hispano Studia Islamica, Vol, 111, 1955, P53. Musulmanas, Reinhart Piter Anne (Dozy): Histoire des Musulmans d Espagne, ed. Leve Provencal, Leyde, 1932, P 9.

(٥) الراهب يولوج القرطبى: Saint Euloguis Of Cordoba، ولد سنة ٨١٠ م، وأعدم فى ١١ مارس سنة ٨٥٩ م، ويطلق عليه أيضا القديس يولوجيوس القرطبى، أو إيولوخيو، وهو قس إسبانى، ولد وعاش جل عمره بمدينة قرطبة عاصمة دولة الإمارة والخلافة فى الأندلس، كان رأس الفتنة التى حدثت فى مدين قرطبة، وعرفت تاريخيا بفتنة المستعربين، فى عهد الأمير عبدالرحمن الأوسط، ١٧٦ - ٢٣٨ هـ / ٧٩٢ - ٨٥٢ م. وكانت نهاية فتنته واعدامه، فى عهد الأمير محمد بن عبدالرحمن، ٢٠٧ - ٢٧٣ هـ / ٨٢٣ - ٨٨٦ م. للمزيد راجع :-

Hugo Hoever: Lives Of Saints: For Every Catholic Book Publishing Co, 1949, P 104.Charles Reginald Haines: Christianity @ Islam in Spain A,D,756 – 1031m London. 1889. P 54. (6) Francisco Javier (Simonet): Historia de Los Mozarabes De Espana, Madrid, 1897–1903, Vol 1, P 366.

(٧) جوستاف لوبون : حضارة العرب، تعريب أ / محمد عادل زعيتر، مصر ١٩٤٥ م، ص ٢٧٧.
John Armstrong (Crow): (1906 – 2001): Spain, The Root and The Flowers,Nem York, 1963, P 56.

(٨) جوزيف توسان رينو: تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا، ترجمة / شكيب أرسلان، طبعة مصر، ١٩٣٢م ، ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(٩) السمح بن مالك الخولانى : هو خامس ولاة الأندلس، وأول ولاة الأندلس (١٠٠ – ١٠٢ هـ) (٧٢٠ – ٧٢١ م)، ممن تم تعينهم من قبل الخليفة الأموى فى دمشق، حيث اختاره الخليفة عمر بن عبدالعزيز، والذى كان ميلاده سنة ٦١ هـ، وعاش وحكم ما بين تاريخ، (٦١ – ١٠١ هـ) / (٦٨١ – ٧٢٠ م)، لولاية الأندلس، وقد كان رجلا فاضلا صالحا، وأمره الخليفة عمر بن عبدالعزيز أن يخمس أرض الأندلس، ويخرج منها ما كان عنوة خمسا لله من أرضها وعقارها، ودخل السمح الأندلس فى رمضان سنة ١٠٠ هـ، إبريل سنة ٧١٩م، واستشهد مجاهدا سنة ١٠٢ هـ ، ٧٢١م. للمزيد راجع:- ابن القوطية : (أبو بكر محمد القرطبى) ت ٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م، تاريخ افتتاح الأندلس، حققه وقدم له ووضع فهارسه الأستاذ / إبراهيم الإبيارى، المكتبة الأندلسية، رقم (٢)، الناشر دار الكتب الإسلامية والمصرية، ودار الكتاب اللبنانى، القاهرة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م، ص ١٢. مجهول : أخبار مجموعة : ص ٢٣. كتاب، نبذة أخبار فتح الأندلس، وهى مأخوذة من الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية، نشر سنة ١٨٦٨م، الكتاب على موقع :-
https://books.google.com.eg/books/about/%D9%86%D8%A8%D8%B0%D8%A9_%D8%A7%D8%AE%D8%A8%D8%A7%D8%B1_%D9%81%D8%AA%D8%AD_%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%86%D8%AF%D9%84.html?id=-wZlNQEACAAJ&redir_esc=y

(١٠) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٢٤.

(١١) نبذة أخبار فتح الأندلس، وهى مأخوذة من الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية، ص ٢٠٧.

(١٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص ٣٠، ٣١.

(13)Manuel Gomez Moreno: Arts Hispaniae, Al Arte Arabe Hasta Los Al mohades, Tomo 111, Madrid 1951, p12.

(١٤) ابن غالب : (أبو عبدالله محمد الكاتب الوزير بن غالب الأندلسى) ت ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦م، كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس، قطعة نشرها الدكتور/ لطفى عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٩٥٦م، ص ٢٧. ياقوت الحموى: (شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى) (٥٧٤ – ٦٢٦ هـ) - (١١٧٨ – ١٢٢٥ م) معجم البلدان، طبعة بيروت، ١٩٦٠م، الجزء الرابع، ص ٥٩.

(١٥) مجهول : أخبار مجموعة، ص ١١.

(١٦) مجهول : نفس المصدر، ص ٢٤. ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢ ، ص ٣٢٠.

(١٧) ابن عذارى : نفس المصدر، ج٢، ص ٣٤.

(١٨) ابن عذارى : نفس المصدر، ج٢، ص ٦٨. ابن الأثير: (عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم بن عبدالواحد الشيبانى) (٥٥٥ – ٦٣٠ هـ) - (١١٦٠ – ١٢٣٣ م)، الكامل فى التاريخ، المطبعة الأهلية، ١٣٠٣ هـ، ١٨٨٥ م، ج٦، ص ٤٩.

(١٩) ابن الأثير : نفس المصدر، ج٦، ص ٤٦. ابن عذارى : نفس المصدر، ج٢، ص ٦٢.

(٢٠) المقرى : نفح الطيب، ج٣ ، ص ١٩٩.

(٢١) مغيث الرومى : هو مولى لعبدالملك بن مروان، وتالذى ولد وعاش فى تاريخ (٢٦ – ٨٦ هـ) – (٦٤٦ – ٧٠٥ م)، ثم لابنه الوليد بن عبدالملك (٥٠ – ٩٦ هـ) – (٦٦٨ – ٧١٥ م)، الذى فتحت الأندلس فى عهده، وقد قام مغيث بفتح مدينة قرطبة بعد أن بعثه القائد طارق بن زياد على قيادة فرقة من الجيش، وقد اختلف فى أصله، وقيل أنه رومى. المقرى : نفح الطيب، ج٣، ص ١٢. وقي إنه ليس برومى. ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص ٩. وإنما هو مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جبلة بن الأيهم الغسانى، وتم سبيه صغيرا، وأدبه عبدالملك بن مروان مع ابنه الوليد، وقد كان له مكانة كبيرة فى الأندلس هو وبنوه من بعده. المقرى : نفح الطيب، ج٣، ص ١٢. محمود شيت خطاب : قادة فتح الأندلس، الناشر / مؤسسة علوم القرآن، منار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م، الجزء الأول، ص ٤٣٤، ٤٣٥.

(٢٢) الكنيسة هى كنيسة شنت بنجنت San Vincent، تم أخذ جزء من هذه الكنيسة، وبنى عليه أول مساجد مدينة قرطبة، وكان فى البداية جامعا بسيطا ، غير منتظم البناء، خط قبلته بأيديهما التابعان الجليلان / أبو عبدالرحمن عبد الله بن يزيد المعافرى الحبلى، ونقل عنه المقرى عن ابن بشكوال أنه قال : '' ويذكر أهل قرطبة أنه توفى بقرطبة، وأنه دفن بقبليها، وقبره مشهور ويتبرك به، والله تعالى أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك ''. ويقال أنه توفى فى إفريقية سنة ١٠٠ هـ. المقرى : نفح الطيب، ج٣، ص ٩. أما حنش الصنعانى : فهو حسين بن عبدالله وكنيته أبو على، وحنش لقبه، وهو من صنعاء الشام. المقرى : نفح الطيب، ج٣، ص ٧. ويخالفه الحميدى، فى أنه حنش بن عبدالله بن عمرو بن حنظلة بن فهد، جاء ذكره فى تواريخ أهل مصر، وحققوا نسبه، وذكروا مشاهده. للمزيد حول حنش الصنعانى راجع :- الحميدى : (أبو عبدالله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبدالله الأزدى) ت ٤٨٨ هـ - ١٠٩٥ م، جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، تراثنا، المكتبة الأندلسية، رقم (٣)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦ م، ص ٢٠١ – ٢٠٣. ويضيف ابن عذارى عنه: أنه شارك إلى جانب عبدالله بن الزبير فى حروبه ضد الخلافة الأموية، فى عهد الخليفة عبدالملك بن مروان، وتم أسره، وقام الحجاج بن يوسف الثقفى (٤٠ – ٩٥ هـ) (٦٦٠ – ٧١٤ م)، بإرساله إلى الخليفة عبدالملك بن مروان، فلما وقف بين يديه، قال له : '' ألست أنت الذى بشرنى بالخلافة يوم جالولاء؟ قال : نعم، قال: فلم ملت عنى إلى ابن الزبير؟ فقال : رأيته يريد الله ورأيتك تريد الدنيا، فلذلك ملت إليه، فقال : قد عفوت عنك ''. ابن عذارى : البيان المغرب، ج١، ص ٨. ويقول عنه المقرى: هو الذى عدل قبلة جامع قرطبة الذى هو فخر الأندلس. المقرى : نفس المصدر، ج٣، ص ٧. وتوفى سنة ١٠٠ هـ، ويقال أن قبره بمدينة سرقسطة عند باب اليهود، بغربى المدينة، ومعروف إلى اليوم. ابن الفرضى : (أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى) ت ٣٠٣ هـ، تاريخ علماء الأندلس، نشر / السيد عزت العطار الحسينى، مكتبة الخانجى القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨ م، الجزء الأول، ص ١٥٠، ١٥١. المقرى: نفس المصدر، ج٣، ص ٣.

(٢٣) السيد عبدالعزيز سالم : التخطيط ومظاهر العمران فى القصور الإسلامية الوسطى، نشر/ مجلة المجلة، العدد التاسع، سبتمبر سنة ١٩٥٧ م، ص ٩.

(٢٤) الحميرى : الروض المعطار، ص ١٥٣.

(٢٥) عبدالواحد المراكشى : (محى الدين أبى محمد بن عبدالواحد بن على التميمى المراكشى) كتب فى ٦٢٠ هـ - ١٢٢٤ م، تاريخ الأندلس، المسمى المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، المطبعة الجمالية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٣٢ هـ، ١٩١٤ م، ص ٣٧٢. ابن الخطيب : (لسان الدين أبو عبدالله محمد السلمانى بن الخطيب) ت ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام، وما يجر ذلك من شجون الكلام، تحقيق وتعليق الأستاذ/ ليفى بروفنسال، الطبعة الرابعة، لبنان، بيروت، ١٩٥٦ م، ص ٤٣، ٤٨.

(٢٦) المقرى : نفح الطيب، ج١، ص ٣٢٥، ٣٢٦.
(٢٧) مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، وذكر أمرائها، نشره/ دون خواكين دى جنثالث، الجزائر، ١٨٨٩ م، ص ٩، ١٠.
Edouardo Saavedra : Estudio Sobre La Invasion de Los Arabes en Espana, Madrid, 1892, P 83.
Manuel Ocana Jimenez : La Basilica de San Vincente Y La gran Mezquita de Cordoba, AL-Andalus, 1942, PP347, 366.
(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص ٣٤٢.
(٢٩) ابن عذارى : نفس المصدر، ج٢، ص ٤٢٩.
(30)Francisco Javier Simonet : Historia de Los Mozarabes de Espana, Madrid 1897, P 190.
(٣١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤٣. ابن عذارى : نفس المصدر، ج٢، ص ٣٤٢.
Elie Lambert : Histoire de La grande Mosquee de Cordoue au V111 et IX Siecles, Annales de L Inatitut d etudes Orientales de L Universite d Alger, Alger, Vol 11, 1936, P165.
(32) Leopoldo Torres Balbas : Los Contornos de Las Ciudades Hispano Musulmanas, AL-Andalus, Vol XV, Madrid 1959, P 450.
(٣٣) أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، الأسكندرية، بدون تاريخ، ص ١٥١.
(34)Evariste Levi Provencal : L Espagne Musulman au Xeme Siecle, Institutions et Vie Sociale, Paris 1932, P299.
(35) Leopoldo Torres Balbas : Nuevos datos Sobre La Mezquita de Cordoba Cristianizada, AL-Andalus, Vol XIV, 1949, P55.
(٣٦) المقرى : نفح الطيب، ج٢، ص ٧٩.
(٣٧) ابن غالب : (أبو عبدالله محمد الكاتب الوزير بن غالب) ت ٧٦٧ هـ، كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس، نشر الدكتور / لطفى عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٥٦ م، ص ٢٧.
(٣٨) المقرى : نفس المصدر، ج٢، ص ٧٩.
(39)Ambrosio Huici Miranda : Historia Musulmana de Valencia Y Su Region,Valencia 1969, Tomo 1, P 65.
راوية عبدالحميد شافع : المرأة فى المجتمع الأندلسى، من الفتح الإسلامى للأندلس حتى سقوط قرطبة، (٩٢ – ٤٢٢ هـ) – (٧١١ – ١٠٣١ م)، نشر/ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م، ص ٨٦.
(٤٠) المقرى : نفس المصدر، ج٢، ص ١٢.
(٤١) ابن بشكوال : (أبو القاسم خلف بن عبدالملك) ت ٥٧٨ هـ – ١١٨٢ م، الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس، الجزء الثانى، مدريد ١٨٨٣م، ص ٧٣.
(٤٢) ابن الآبار : (أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعى)، ٦٥٨ هـ – ١٢٦٠ م، كتاب التكملة لكتاب الصلة، نشر جنثالث بالنثيا، مدريد ١٩١٥ م، ص ٥٦١.
(٤٣) المقرى : نفح الطيب، ج١، ص ٢٠٤.
(٤٤) المقرى : نفس المصدر، ج٢، ص ٧٨.
(٤٥) الرسالة الشريفية، ص ١٩٩.
(٤٦) المقرى : نفس المصدر، ج٢، ص ٨٤.
(٤٧) الربض : كلمة الربض مفرد، وجمعها أرباض، وربض الشخص بالمكان، أى أقام ملازما له، وهو ما حول المدينة، أو القصر من مساكن ودكاكين. للمزيد راجع :- المعجم الوسيط :

مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٧٩ م، ١٩٦٠ م. وقد بلغ عدد أرباض مدينة قرطبة، بعد التوسع أحد وعشرين ربضا، ابن بشكوال : الصلة، ص ٧٣. ويذكر الأثرى الأسبانى / ليوبولدو توريس بلباس Torres Balbas، أن سكان مدينة قرطبة من قاطنى هذه الأرباض كانوا دائما يتخذونها على ضفة نهر الوادى الكبير، حيث كانت تقام الحدائق والقصور، مثال ربض الروضة، وربض الرصافة، وربض منية عجب، وهى زوجة الأمير الحكم الربضى، حيث أقامت لنفسها هذا الربض، وما زالت بعض هذه الأرباض تحمل أسمائها القديمة إلى اليوم. Leopoldo Torres Balbas : Op , Cit, P 450. وللمزيد حول ثورة الربض التى غيرت البنية التحتية لمدينة قرطبة، بعد هدم وحرث منازل العامة بربضها، عقب إخماد الثورة، راجع :- مجهول : أخبار مجموعة، ص ١٣١. ابن عذارى : البيان المغرب، ج٢، ص ١١٤.

(٤٨) ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس، ص ٦٢.

(٤٩) المقرى : نفح الطيب، ج١، ص ١٤٦.

(٥٠) جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص ٣٠٠.

(٥١) جوستاف لوبون : نفس المرجع، ص ٥٩٦.

(52)Leopoldo Torres Balbas : Las Edificion Hispano Musulmanus, en Revista, Madrid 1953, Vol V, P 110, 111.

(٥٣) المقرى : نفس المصدر، ج٢، ص ٧٨.

(٥٤) ابن عبدالرؤوف : (وابن عبدون والجرسيفى)، ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب، نشر الأستاذ / ليفى بروفنسال، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥ م، ص ٧٨. راوية شافع : المرأة فى المجتمع الأندلسى، ص ٨٦.

(٥٥) ابن حزم : (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى) ت ٤٥٦ هـ - ١٠٦٣ م، طوق الحمامة فى الألفة والألاف، ضبط نصه وحرر هوامشه الأستاذ الدكتور / الطاهر أحمد مكى، الطبعة الرابعة، دار المعارف، رمضان ١٤٠٥ هـ، يونيو ١٩٨٥ م، ص ٤١، هامش (٤). راوية شافع : نفس المرجع والصفحة.

(٥٦) المقرى : نفح الطيب، ج٢، ص ١١.

(٥٧) المقرى : نفس المصدر، ج٢، ص ١٤٧.

(٥٨) ابن سعيد المغربى : (على بن موسى بن سعيد المغربى) ت ٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م، المغرب فى حلى المغرب، ذخائر العرب (١٠)، الجزء الأول، نشر وتحقيق الدكتور / شوقى ضيف، طبعة دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٥٣ م، ص ٤٥.

(٥٩) المقرى : نفس المصدر، ج١، ص ٣٧١.

(٦٠) ابن بشكوال :(أبو القاسم خلف بن عبد الملك) ت ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م، الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس، القسم الثانى، المكتبة الأندلسية، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦ م، ص ٦٩٢. وللمزيد حول لبنى العروضية ودورها فى إدارة مكتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله، راجع :- الضبى : (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) ت ٥٩٩ هـ - ١٢٠٣ م، بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس، تراثنا رقم (٦)، المكتبة الأندلسية، دار الكاتب العربى، ١٩٦٧ م، ص ٥٦. المراكشى : (أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالملك المراكشى) ت ٧٠٣ هـ - ١٣٠٤ م، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، تقديم وتحقيق الأستاذ الدكتور / محمد بن شريفة، مطبعة المعارف الجديدة، المغرب، الرباط، ١٩٨٤ م، الجزء الثانى، ص ٤٩٢.

(٦١) للمزيد حول تلك العناصر راجع :- أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي، تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٨٥م، من ص ١٦٧ — ١٨٧. السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، الجزء الأول، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٩٧م، من ص ١٩ — ٢٧، ومن ص ١٦٣ — ٢٢٨.

صور بعض منشآت البنتية التحتية.

الأسوار العربية.

القنطرة على نهر الوادى الكبير.

القنطرة على نهر الوادى الكبير، ويظهر فى نهايتها المسجد الأموى بقرطبة.

نموذجا للحمامات العربية

نموذجا للدروب القرطبية.

طريقة تزيين البيت القرطبى من الخارج.

البيت القرطبى من الداخل.

نموذجا للمكتبات الأندلسية.

آثار مدينة الزهراء.